الفصل الحادى عشر

تغطيــة مظاهــرة

تلقنا إعلانات التليفزيون فيما يبدو حكمة شائعة أن بخة واحدة من عطر معين، أو استخدام معجون أسنان معين كل يوم سوف يجلب الحب وراحة البال الدائمة. ونحن نشاهد الإعلانات ونعلم أن هذا هراء، ولكننا نشترى هذه الأشياء.

وفى معظم البرامج الترفيهية.. تكون الرسالة على هذا المستوى من الذكاء .. فعندما تواجهنا مشكلة خطيرة يقال لنا إن الحلول واضحة، ويتم ذلك خلال ساعة أو نصف ساعة؛ فيستطيع الإنسان أن يلجأ إلى الطلاق أو القتل مثلاً لحل المشكلة.

إن التليفزيون أداة ناقصة، لا تصلح للتفكير وللمداولات الصبورة المرهقة اللازمة لحل المشكلات الحقيقية، التى تواجه أناساً حقيقيين. ويقوم التليفزيون - كوسيلة درامية - بتجريد الحقيقة من الروتين والملل، ويقدم صورة لنجاح تاجر، أو حلاً عاجلاً لعقدة، فى حين أن التقلب والفشل غالباً ما يكتنفان الناس فى واقع حياتهم.

وفى قصة كتبها إدوين كيستر الصغير Edwin Keister Jr. فى دليل التليفزيون قال، فيها : فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٨٢، عقد جورج ماكورميك، وهو ضابط فى شرطة لوس أنجلوس، مقارنة بين عمله فى الحقيقة، وعرض نموذجى «للعسكر والحرامية» فى التليفزيون، فقال: «أيها الأولاد إنكم تستطيعون إنجاز ما أعمله فى عام كامل فى ساعة واحدة. ويقول الناس: لماذا لا يستطيع البوليس الحقيقى أن يكون كذلك». إنهم لا يعرفون أن شخصاً ما هو الذى يكتب النص الذى يمثّل، فيتحقق ما يرونه كأنه الواقع».

ونص ماكورميك يقول «في بعض الأحيان يمر يوم كامل دون أن أستدعى، وفي أيام أخرى لا تتوقف الاستدعاءات. ولقد عرف أحد زملائي السابقين مهمة رجل الشرطة أبلغ تعريف، حين قال «ساعات من السأم، تتخللها دقائق من الرعب الشديد».

ولا يتوقف قصور التليفزيون في نقل الحقيقة عند الإعلانات أو الأعمال الدرامية وحدهما. فهو يصيب أخبار التليفزيون أيضاً؛ حيث يكون توقع الناس للحقيقة أكبر مما يحدث بالفعل؛ فالحاجة إلى العرض المصور والإيجاز تحد من قدرة أخبار التليفزيون على تبسيط التعقيدات في قضايا معينة أو تناولها بعمق، وليس من الضروري أن تؤدي البرامج الأطول إلى عمق أكبر. والاتجاه السائد في المحطات المحلية - حيث يتوفر الآن مزيد من الوقت - هو استخدامه لبث مزيد من الأخبار ومزيد من الترفيه؛ بدلاً من زيادة الإيضاح والتفسير وعرض خلفيات الأخبار.

وإنه لمن دواعي السخرية أن المواطنين يتجهون في الحصول على المعلومات إلى وسيلة، تتعامل مع الصور المبسطة، في وقت يزداد فيه تعقد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتزداد الصعوبة في حلها. ولو أمكن رصد الصواب والخطأ، في الواقع الحي خارج إطار التليفزيون.. فإن كيفية التصرف فيه تتسم بالتخبط والصعوبة، ونحن في الصراع نتوجه إلى الحق، وما يترتب على ذلك من نضال. ويميل التليفزيون - في إيجازه - إلى تبسيط القضايا المعقدة، ذات الأوجه المتعددة فتصبح وكأنها صراع بين أولاد طيبين وآخرين أشرار، وبهذا يهيئون جواً يكون فيه المشاهدون، غير راغبين في الاعتراف بالحلول الوسط اللازمة للعدالة والسلام الاجتماعي أو قبولها.

ويوضح هذه النقطة، اللجوء المستمر إلى المظاهرات كملتقى عام في المشكلات المعقدة، ويقع التليفزيون تحت إغراء هذه الأحداث؛ إذ تجمع بين الدراما والتسلية. والمظاهرة المنظمة هي حدث معد تماماً كالمؤتمر الصحفي؛ فكلاهما يستهدف جذب انتباه وسائل الإعلام.

والجاذبية في المظاهرات أمر واضح؛ فهي مثيرة من ناحية الصورة. كتل من البشر ترفع قبضات أيديها تصيح وتغني وتشكل الحدث الدرامي وألوانه. هناك عاطفة وانفعال؛ فالمظاهرة تتيح للغاضبين والمحبطين إطلاق مشاعرهم المكبوتة، ثم إن المظاهرات تبسط الأمور، وتريح منتجي الأخبار من صداع الكلمات في المجالس وقاعات الاستجواب.

والذين ينظمون المظاهرات لا تخفى عليهم جاذبيتها للمؤسسات الإخبارية، وسوف يتأكد المنظمون من أن المحطات المحلية تعلم مكان وموعد المظاهرة. وليس من الضرورى أن تكون المظاهرة جادة، أو تمثل قطاعاً واسعاً من الرأى العام؛ حتى تجذب التغطية الإخبارية فمادامت مفعمة بالحيوية وذات وجه مسرحى، ومثيرة، فللمتظاهرين أن يطمئنوا إلى وجود الكاميرا.

وتنظم مظاهرات كثيرة، على أساس أنها الوسيلة الوحيدة للفت اهتمام وسائل الإعلام.

وحتى مع الاعتراف بأن مشكلاتهم وتفاقماتها يمكن أن تُشرَح على النحو الأفضل فى اللقاءات الهادئة الواعية، إلا أن المنظمين يتجهون إلى المظاهرات كوسيلة وحيدة، لا يرون غيرها لإسماع صوتهم.. إنهم يلجأون إلى هذا الخطاب الحر المفعم بالانفعال والمواجهة، فى حين أن الاهتمام الواعى المبكر من جانب المندوبين، كان يكفى لإدارة حوار معتدل، معقول وبناء.

ونتيجة لذلك.. فالجميع يفعلونها : الكبار والمعوقون، والمنحدرون من أصل بورتوريكى، والكروات، والمحتجون على الحرب النووية، وجين فوندا والمزارعون، والأمهات، وعمال البناء، والعاطلون والمستأجرون، إلى آخر قائمة لا تنتهى. وكلما تنافرت الأصوات.. فقدت المظاهرات فاعليتها فى إثارة الرأى العام أو تحديد الاستجابة الرسمية. أما بالنسبة لمشاهد التليفزيون.. فإنها تصبح مجرد عرض خارجى، يتابعه بشغف أحياناً، ودون أن يعيره اهتمامه فى أحيان أخرى، ثم ينساه فى كل الأحوال.

وهناك أسباب عديدة وراء فشل التليفزيون المحلى فى تغطية قضايا معينة، قبل أن يشعر المواطنون بحاجتهم إلى التظاهر، يرجع أولها إلى وزن المندوب الذى تستخدمه بعض المحطات الصغيرة والكبيرة؛ حيث يتفوق المظهر والقدرة الدرامية وسحر الشخصية على الالتزام بحاجات المجتمع المحلى وفهمها. ولابد أن ينعكس هذا التركيز المظهرى على المنتج الإخبارى فى النهاية، وتصبح مسألة وجود مصادر للمندوب فى هذا المجتمع، وأن يكون موضع ثقتها، واحترامه أمراً ثانوياً بالقياس إلى شخصيته على الهواء وكيف يبدو. وكثيراً

مايستعان بمندوبين من خارج المنطقة، يفتقرون إلى المعرفة بها والرؤية العميقة فيها، والاتصالات الضرورية التى تجعل منهم صحفيين محليين جديرين.

وحتى عندما يتاح للمندوب الوقت الكافى لتكوين الاهتمام المطلوب والاتصالات مع المجموعات المحلية.. فمن المحتمل ألا يبقى طويلاً فى محطة محلية معينة، فهناك عملية تنقلات مستمرة للعاملين فى أخبار التليفزيون المحلى. فلا يكاد المندوبون يعرفون اسم العمدة المحلى أو الحركة فى شوارع المدينة.. حتى ينتقلون إلى محطة أخرى، فى مدينة أخرى سعياً وراء أجر أعلى، وجمهور أوسع من المشاهدين. وبسبب هذا القصور فى الاستمرارية.. فإن قليلاً من مندوبى التليفزيون هم الذين يبقون فى محطة محلية وقتاً كافياً؛ لبناء الإحساس بالاهتمام والالتزام والثقة، التى تحتاجها المجتمعات المحلية وتريدها.

وحتى لو كان المندوب شغوفاً بإقامة هذه الاتصالات.. فإنه فى معظم المحطات فى دوامة من الانشغال، قلما تسمح له بذلك. فغالباً ما يطلب من المندوب المحلى أن يغطى ما بين ثلاثة إلى أربعة موضوعات كل يوم، ولذا.. فإنه لا ينتظر منه سوى مس الأمور سطحياً. ولما كانت التغطية المثلى ليست رد فعل للأحداث، وإنما استباق للتطورات.. فإن فرصة مندوب التليفزيون - الذى لا يجد سوى وقت ضئيل للتفكير فى الموضوعات واستظهارها - محدودة فى ممارسة مثل هذه الصحافة ذات المستوى الأعلى.

ومن الواضح أن العالم الحقيقى للتليفزيون المحلى، على نحو ما هو الآن، ليس مثالياً أو كاملاً، ويجب على المندوب أن يستفيد - إلى أقصى حد - من الفرص المتاحة لمزاولة الصحافة الذكية.

إنه يوم جديد آخر فى محطتك، ومن الطبيعى أنك مشغول، ويعهد إليك بتكليف لتغطية مظاهرة. إن خطوتك الأولى أن تتصل تليفونياً بالمنظمين، قبل أن تقوم المظاهرة حتى تعرف الغرض منها. وقد تريد أيضاً أن تتحدث إلى من يمثل وجهات النظر المضادة حتى تلم بالصورة وتعرف علام يراهن كل طرف. ومن المفيد أن تنجز سلفاً بعض الأعمال الخاصة بتغطية المظاهرة؛ حتى تستطيع أن تحصل - فى هدوء - على خلفياتها وبواعثها، بعيداً عما ستحدثه بعد قليل من صخب وضجيج. وستكون طبيعة المعلومات التى تحصل عليها مختلفة؛

إذ تكون أكثر فكراً وأكثر وعياً، عندما تحصل عليها فى لقاء هاتفى أو فى جو هادئ. ففى وسط المظاهرة.. يبالغ المنظمون والمشاركون فى مطالبهم، ويمكن أن يتحالف وجود الكاميرا مع إثارة المناسبة، فى إعادة تشكيل طبيعة مطالب الجماعة المتظاهرة، ولاشك أنه من المهم تقييم أهداف منظمى المظاهرة، وتقدير جدية قصدهم وسلامته.

وعندما تعرف ما يريده المتظاهرون، يجب أن تسأل نفسك: هل هذه المطالب قابلة للتحقيق. وعلى سبيل المثال.. فليس من قبيل المفاجأة أو مما يدهش أن يتظاهر المواطنون للإبقاء على أجور النقل بالأتوبيس ومترو الأنفاق منخفضة. ولكن نظام النقل يعانى من عجز خطير فى ميزانيته لأسباب عديدة. وإذا أعرض الركاب عن دفع تكاليف تشغيل وسائل النقل، فمن الذى سيفعل ذلك؟ وما الذى يقترحه المتظاهرون بالضبط؟

وإذا كان المطلوب فى حقيقته يمثل سذاجة مفرطة وبعداً عن الواقعية، وغير قابل للتحقيق على الإطلاق فالمندوب مدين للمشاهد أن يقدم له أكثر من مجرد عرض غضب المتظاهرين، وإحساسهم بالإحباط. وتسجيل الغضب والإحباط دون تحليل. وعدم وضع الأمر فى نصابه إنما يكون إضافة لمزيد من الحرارة دون إلقاء أى ضوء، وهنا لايزيد المندوب عن أنه يقول : «انظر لقد جنّ القوم» ولكنه لا يقدم أى إيضاح لكيفية إزالة أسباب هذه الشكاوى والتظلمات.

ومما لاشك فيه أن الخبر الذى يعرض المظاهرة، ويحكى ظاهر أمرها فحسب، إنما يمثل خدمة سيئة لحق الجمهور فى أن يعلم، ويزيد من الانفعال وعدم التعقل، بدلاً من المعرفة التى تفيد فى الحوار. وإذا أردت أن تتصرف من منطلق الإحساس بالمسئولية.. فلابد أن تحيط المشاهد علماً بالعناصر التى يمكن أن تؤدى إلى حل المشكلة المطروحة، والخيارات الممكنة، ومن أين يمكن أن تأتى الأموال اللازمة، وهل هى متوفرة أم لا؟ ولن يؤدى ذلك إلى إسكات أصوات المتظاهرين أو تجاهلها، هؤلاء الذين يشعرون بأنهم لا حول لهم ولا قوة، وأنهم مغلوبون على أمرهم، ولكنه يضيف إلى صرختهم إيضاحاً عقلانياً مفيداً.

وهناك طريقان على الأقل للإقبال على مهمة تغطية مظاهرة، الأول: هو النظر إلى الموضوع بعمق يتجاوز حدود اللحظة، ويؤدى إلى التحقيق فى القضايا المثارة، والثانى: هو

النظر إلى المظاهرة على أنها عرض مسرحى فى الطريق، يمثل مشهداً عابراً ينقطع بانتهاء لحظته، دون أن يحقق أى هدف .. وحتى إذا كان الأمر كذلك؛ فأنت فى حاجة إلى أن تطبق مبادئ التحليل والتقييم الواعى، إذا أردت أن تصون نفسك من أن تجرفك إغراءات المشهد، الذى تقوده أوركسترا من قادة المظاهرة.

ومن المعلومات المهمة معرفة عدد المشتركين فى المظاهرة. وفى بعض الأحيان تكون المظاهرة صغيرة؛ بحيث تستطيع أن تحصى عدد المشاركين فيها، ولكن المعتاد هو الاعتماد على الأرقام التى تقدمها الشرطة. وإحصاءات الشرطة يجب أن تنسب إليها، وألا تقبلها كحقيقة مقدسة. ومن المعروف أن المسئولين يبالغون أو ينتقصون من عدد المشاركين على حسب طبيعة الاحتجاج؛ فإذا كان المتظاهرون يشكلون جماعة لا يحبها المسئولون جاءت الأرقام المقدمة أقل من الواقع؛ لإعطاء الانطباع بأن المظاهرة ليست خطيرة. ومن ناحية أخرى.. فإن قادة المظاهرة يمكن أن يقدموا أرقاماً متضخمة؛ حتى يبدو الاحتجاج أكثر أهمية. فإذا أقبلت على المناسبة وأنت تعلم كيف يمكن التلاعب فى الأرقام.. استطعت أن تقول إن العدد يتردد ما بين كذا وكذا، وتركت للمشاهد أن يستنتج بنفسه.

وهناك سؤال آخر يحتاج إلى إجابة : ما طبيعة الجمهور؟ كم من المشتركين متظاهر حقيقى، وكم منهم جذبه المشهد وما فيه من إثارة؟ إن العينة العشوائية يمكن أن تفيدك، فالأرقام الثابتة مستحيلة تقريباً. ومن الأساليب المفيدة إجراء مقابلات مع المشاركين فى المظاهرة، ولكن دون كاميرا؛ إذ يقلل ذلك من احتمال احتيال المواطن العادى الذى قد يخترع قصصاً خيالية؛ ليضمن ظهوره على الشاشة.

ولابد أن يفرق المندوب بين هؤلاء الذين يرغبون فى أن يقولوا أى شئ أمام الكاميرا، ومن لديهم بعض المعلومات المهمة الحقيقية. وقد يقبل بعض المندوبين ما يردده المتظاهر أمام الكاميرا من تعليقات دون انتقاد أو اعتراض، لأنها فى الواقع تخدم خططه فى تحقيق العنصر الدرامى فى الخبر وعناصر الإبهار والإثارة. وتكون النتيجة لى الحقيقة وتشويهها، وتتحول عملية جمع الأخبار إلى مؤامرة لخلق الدراما، أكثر منها انعكاساً للحقائق الصحفية الواعية.

وتضم المظاهرة جمهوراً له حياته وأهدافه وهويته التى تختلف عن أفراد آخرين، قد يشعرون أو لا يشعرون بالانتماء لهذه الحركة. تعرف بسرعة على من له حق التحدث باسم هذا الجمهور، وليس من يتحدث باسمه فقط. وفى بعض الأحيان.. يكون التجمع هلامياً غير متبلور، يضم أناساً أصابتهم أشياء كثيرة بالضيق الشديد: ظلم الحياة، الإحباط الشخصى، التضخم، البطالة، ولعل المنظمين قد حشدوا - فى مهارة - هؤلاء الأفراد الذين لا يعنيهم السبب المباشر، وذلك لإطلاق البخار المكتوم. وقصارى القول إن المظاهرة - فى بعض الأحيان - قد لاتكون فى حقيقتها كما يبدو منها، وقد لا تعدو أن تكون مجرد تنفيس عن انفعالات مكبوتة.

وستجد المندوب الضليع الذى يسبر الأغوار حساساً لهذه الفروق، واضحاً فى تغطيته، مميزاً بين طبيعة الاحتجاج وهدفه المعلن. وبهذا يكشف التعقيد الإنسانى فى الواقعة إلى جانب الأبعاد السياسية والاجتماعية.

ومن بين الأسئلة التى يجب أن توجهها إلى أى متظاهر: لماذا أنت هنا؟ ما الذى يجرى فى حياتك، ويدفعك للانضمام إلى الاحتجاج؟ لماذا شعرت أنه ليس ثمة طريق آخر ليصت إليك الآخرون بإنصاف؟ ما علاقتك بمنظمى المظاهرة؟ وكيف علمت بأمرها؟

أما بالنسبة لقادة المظاهرة.. فاسألهم: ما الذى تحاولون الحصول عليه؟ ولماذا اخترتم هذه الطريقة لإبلاغ رسالتكم؟ والأهم من هذا كله: ما الإجابة التى تنتظرونها بالضبط؟

ولتعلم دائماً أن الصياح طلبا للعدالة أسهل بكثير من تحديدها أو تحقيقها. وتحتاج التغطية إلى الانتقال من الأثر العاطفى القوى للمتظاهرين فى مجتمع ديمقراطى، إلى عملية التصارع الأليمة مع القضايا والمسببات. ولقد قالها القديس بولس للمسيحيين الأُوَل إنه حتى مملكة الرب قوامها القوة لا القول. وإذا كانت المظاهرة تريد أن تزاول منطق القوة، فعلى المندوب أن يعرف لماذا؟ وبيد من؟ وما الكيفية؟

اسأل .. هل الهدف الذى اختاره المتظاهرون ملائم، هل يلومون بلدية المدينة عندما تكون هيئة الاحتياطى الفيدرالى، هى التى تبقى أسعار الفائدة عالية؟ وهل يهاجمون وكالة حماية البيئة عندما يكون الكونجرس، هو الذى أصدر قوانين مكافحة التلوث؟ وهل يرفعون لافتات الاحتجاج ضد البيت الأبيض، عندما ترفع الدول العربية أسعار البترول؟ وقد يكون من

المستحيل على المواطن العادى الذى يعيش فى مجتمع متشابك يعتمد بعضه على بعض - فى ظل مراكز قوة محيرة - أن يكون على يقين من الهدف المناسب لاحتجاجه، إلا أنه لابد من بذل بعض الوقت والجهد لاستجلاء هذا الهدف.

وتصبح الاحتجاجات عملاً رمزياً ومحاولة لجذب انتباه السلطة، ما لم يكن لها هدف محدد. وإذا رأيت أن هذا هو مغزى الاحتجاج فعبر عنه، وماتراه أمامك قد تكون فيه احتمالات كامنة أكبر وأبعد مدى فى الأهمية، من مجرد احتجاج معزول محدد الهدف؛ فقد تكون شاهداً على توتر متشعب الجذور، ينبئ عن انقسامات أعمق وأشد صلابة، تحتاج إلى استجابة جذرية سياسياً واجتماعياً. إن انتفاضة الحقوق المدنية والمظاهرات المعارضة للحرب فى الستينات، كان يمكن أن تؤدى إلى ثورات سياسية وإجتماعية أوسع نطاقاً، لولا أن وسائل الإعلام تناولتها على نحو ملائم، ولولا أن النظام السياسى اذعن لمطالبها. اسأل نفسك: هل هناك ضغوط تتنامى تحت السطح، وهل المظاهرة التى أمامك هى ما يبدو من جبل الثلج؟

ولابد أن تتخذ قراراتك فى كيفية إنجاز التغطية بالصورة، حتى وأنت تتأمل طبيعة الحدث ومغزاه. وحتى تغطى أبعاد المشهد.. قد يضطر المصور أن يصعد إلى تل أو سطح قريب لإلتقاط صورة شاملة للموقف. ومثل هذه اللقطة من أعلى، يمكن أن تكشف عن اتجاه المسيرة، وإلى أى مدى ملأ المحتجون الشوارع والطرقات. وعلى أرض ميدان المظاهرة.. يجب أن يلتقط المصور صور اللافتات المرفوعة، والملابس غير العادية التى يرتديها بعض المتظاهرين والأغانى والأناشيد، أو مشاهد الصمت التى يمكن أن تكشف عن طبيعة المظاهرة ومحورها. ومن الصور المهمة: التنوع أو التجانس فى وجوه الأفراد، وخلاصات الكلمات التى تلقى، وردود فعلها على وجوه المستمعين. ومن المفيد الحصول على ردود فعل وتعليقات المتفرجين، إن وجدت؛ لأنها تعبر عن مدى التفاعل بين المتظاهرين والمتفرجين، وتكشف بعض التصرفات الرمزية- مثل تحطيم الصور- بسرعة وبقوة عن نية المتظاهرين، فمن منا يستطيع أن ينسى صور الإيرانيين، وهم يحرقون دمى تمثل الرئيس كارتر، والمحاربين القدماء وهم يلقون أنواطهم فى حرب فيتنام فى حديقة مبنى الكونجرس. ومن الواضح أنه يجب عليك - حين تغطى مظاهرة - أن تنتبه إلى الطبيعة العاطفية والرمزية للحدث، ومايطوى عليه من أفعال.

وعندما تأخذ المظاهرة التى بدأت سلمية فى التحول إلى العنف والاضطراب، فستجد نفسك فى مواجهة صعوبات خاصة تتصل مباشرة بطبيعة وسيلتك؛ فقد ذكرت اللجنة الاستشارية القومية للاضطرابات المدنية (لجنة كيرنر) (The Kerner Commission) فى تقرير لها عام ١٩٦٨، أنه - خلال أحداث الشغب فى تلك الفترة - كان واضحاً أن معظم مندوبى التليفزيون والمصورين يدركون قوة الكاميرا فى إثارة الإضطراب، وقد تحلوا بالانضباط، ولكن قلة منهم حرضوا المتظاهرين، ودبروا عمليات الحجارة، وشجعوا اللجوء إلى العنف؛ حتى يحصلوا على صور مثيرة حافلة بالحركة. ومنذ ذلك الوقت.. أصدرت المؤسسات الإخبارية التى تقدر المسئولية توجيهاتها وتحذيراتها إلى رجالها، عندما يخرجون لتغطية مثل هذه الأحداث؛ فى محاولة منها لمنع مثل هذه التصرفات غير الأخلاقية، التى تسئ إلى شرف المهنة.

وعندما تبدأ المظاهرة فى هدوء، ثم تنفجر فيها أعمال العنف، كيف تكون تغطيتها؟ هب أن معظم المتظاهرين كانوا مسالمين، وأن قلة منهم قد اختارت أن تلجأ إلى التخريب وانتهاك القانون.. فهل تسمح فى تغطيتك للأغلبية المسالمة، أن تبتلعها تصرفات القلة التى تستعرض عضلاتها؟ إن أحداث العنف يمكن أن تطغى على الحقيقة لو اخترت أن تركز عليها، بينما الحقيقة أن الأغلبية جاءت تعلن رسالتها سلمياً. انتبه فقط إلى الطبيعة الحقيقية ومزاج الجمهور وغضبه، وغرضه وما ينتويه، ولا تسمح لقلة من مثيرى الشغب والفتنة أن يرسموا معالم الخبر. إنك تستطيع أن تحكى الخبر بشكل واع هادئ، يعبر عن الأغلبية المسالمة، ثم تشير باختصار إلى الاضطراب الذى حدث، حتى يأخذ حجمه الطبيعى فى درجة الأهمية، إذا تبينت فعلاً أنه بسيط إذا قورن بما حدث. ومع ذلك.. فإذا نشبت الاضطرابات المدنية الشاملة، فلا سبيل إلى احتواء هذه الحقيقة، وليس لك أن تحاول؛ فمن الواضح أن من حق الجمهور أن يعرف إلى أى مدى كانت الاضطرابات وأعمال العنف خطيرة، وكيف تتصرف الشرطة والحرس الوطنى فى إخمادها، والحاجة تدعو للإشارة إلى الأسباب، ولكنها فى اليوم الأول، يحتمل أن تحتل المرتبة الثانية، إذ تستأثر بالأولوية فيه ملامح الحدث وصور الاضطرابات وتفصيلاتها.

كن على بينة بمدى صعوبة الحصول على معلومات يعتد بها، فى ظروف من هذا القبيل؛ حيث تنطلق الشائعات حتى من الجهات الرسمية. وما يحتمل أن تحصل عليه هو أجزاء يسيرة من الصورة الكلية، تسرب بعضها عبر مخاوف وظنون المسئولين عن تنفيذ القانون والمواطنين. وحتى تجد طريقك فى هذه الأحراش المتشابكة.. تقدم بحذر، وليكن خيارك فى التغطية متحفظاً، ويعنى هذا ألا تنقل إلا ما هو مؤكد، مع إيضاح مصادر المعلومات وتقييمها والتحفظ، إذا لزم الأمر.

ولتعلم أنه من خلال حقيقة تغطيتك لأعمال العنف، قد تكون باعثاً عليه. إنك تصبح جزءاً من الحدث الذى تغطيه، لأن ما تقوله يشكل ردود الفعل لدى المشاهدين. وماذا عن حق الجمهور فى المعرفة إذا كانت هذه المعرفة تحول الموقف إلى أسوأ؟ هل من الملائم أن يحجب المندوب معلومات بحجة أثر الحدث؟ يعتقد المندوب - فى الظروف العادية - أنه يجب أن ينقل ما يعرف فلا يدخر شيئاً، ولتتطاير الشظايا لتقع حيث يكون. ولكن هل يناسب ذلك أحداث الشغب؟ أيناسب الثورة؟! أيناسب الحرب؟!

إنها أسئلة مثيرة للأسى بالنسبة لمندوبى الصحافة المقروءة، وهى أدهى وأمر بالنسبة لمندوبى التليفزيون؛ بسبب قوته فى إثارة العواطف وإشعال اللهيب .

وثمة أسئلة أخرى تستدعى النظر.. هب أن العنف تعبير له ما يبرره عن غضب المقهورين.. هب أن القوى الثورية، مهما كان عنفها، لها سند من التاريخ والحق.. ما دور المندوب فى هذه الظروف؟ هل يضعه تأكيده على دور الحكومة فى احتواء الاضطرابات إلى جانبها مؤيداً للوضع القائم؟ قد يعرض المندوب نفسه للاتهام بمحاباة السلطة، لو ركز على القانون والنظام، وكذلك لو ركز على المحتجين؛ إذ سيبدو متعاطفاً مع وجهة نظرهم. وقمة الصعوبة هنا هو الالتزام بالموضوعية.

وقد سلح المتظاهرون السابقون للحقوق المدنية أنفسهم بالسلاح المعنوى المؤثر عندما تجنبوا العنف. وأصبحت صور التليفزيون للزنوج ورجال الشرطة يوسعونهم ضرباً بالهراوات والجنازير وخراطيم الإطفاء، أصبحت حجة بليغة على المظالم، التى تكدست فوق رؤوس الزنوج فى الولايات المتحدة. وسرعان ما أعقب ذلك تشريع رئيسى وثورة فى المواقف

الإجتماعية لمصلحة الزنوج. وحيثما يتجه المحتجون إلى العنف.. تقل فرصتهم فى إثارة مثل هذا التعاطف، أو إنجاز مثل هذه النتائج المذهلة، طالما أن مشاهد التليفزيون يشعر بنفسه أن التغيير يمكن أن يحدث بلا عنف وبالوسائل القانونية. ولما كان العنف على الشاشة، قد يجد تعاطفاً من المقهورين والبائسين والغاضبين بين مشاهدى التليفزيون.. فإن هذا يعنى أن صور العنف على الشاشة قد تحفز مزيداً من المواطنين إلى المشاركة فيها.

وقد تشعر بالميل إلى أن تدع الحدث يحكى نفسه، وذلك لأن المظاهرة تأسر بالصورة والانفعال العاطفى. وقد تغريك الطبيعة المشحونة للحدث أن تترك الصور والمقابلات مع المشاركين تحكى ما يحدث.. وقد يتخذ هذا القرار فى وقت، يرى فيه المشاهد أن جزءاً من عالمه يتمزق، وهنا يكون شديد التعطش إلى الإيضاح. ولهذا السبب وغيره.. لا تتردد فى الإيضاح والتعليل، كلما كان ذلك ممكناً وسديداً.

إن العبء ثقيل، خصوصاً عندما ينتظرونك أن تبث على الهواء من موقع الحدث. كيف تغطى بوعى ما وصفته الملكة اليزابيث الأولى ذات مرة بقولها : هؤلاء الذين لا يكبحهم منطق، كيف تفسر انطلاق الأعمال غير العقلانية من الشكاوى الحقيقية المعقولة؟ كيف تفسر انحراف أصحاب الشكاوى، الذين يلتمسون الإنصاف والعدل، إلى أعمال تفرض الظلم على ضحايا آخرين (على سبيل المثال، أصحاب المحال الذين يبدو أنهم يتحملون دائماً أسوأ نتائج عمليات الإحراق، وثورة الغضب فى المدن الأمريكية) ... إنه تكليف شاق.